الحيوانات

حظيت الحيوانات بعشرات الأمثال الشعبية، وذلك لعدة أسباب يمكن الإشارة إلى أهمها:

- إن هذه الحيوانات في معظمها تعيش مع المواطن وتشاركه يوميات حياته، وهي بالتالي في مواجهته باستمرار، وخاصة الأليفة منها.
- ثم أن المثل حمل هذه الحيوانات ما أراد أن يقوله في بعض الناس، خاصة في جوانب الصبر والغباء والدونية والحقارة والخبث والدهاء، وغير ذلك من الصفات التي لم يشأ إلصاقها بالإنسان مباشرة، أما لكي يأخذ المثل حريته في التعبير، أو لأن هذا الحيوان لا يصاحبه رد فعل سريع نتيجة السبة والشتائم.

واستعراض للحيوانات التي تناولها المثل الشعبي نجد أن الأقرب من الإنسان هي التي حظيت بمجموعة من الأمثال الكثيرة، تكاد تشمل كل صفاتها ومراحل حياتها، في حين أن تلك الحيوانات التي يسمع بها ولا يراها، أو هو على تماس غير مباشر معها قد حظين بأمثال قليلة، فيما انعدم ذكر العديد من الحيوانات في الأمثال الشعبية المتوفرة بين أيدينا.

فإذا كان الكلب حسب اعتقادنا هو أكثر الحيوانات ذكراً في الأمثال الشعبية، فإن الحمار والجمل والقرد والثور والخيول والقط والخروف والغزال والذئب، والبغل والواوي والأسد ثم الخنزير والدب والضبع هي التي ترد باستعمالات متفاوتة.

وأن حيوانات مثل الفيل والنمر والفهد وغيرها لم نعثر لها على ذكر في الأمثال المتوفرة لدنيا من المصادر، وأن وجدت فهي أمثال غير شائعة أو هي محدودة بالتأكيد، وذلك لأن انعدام الصلة بين هذه الحيوانات ويوميات حياة الناس التي جاءت الأمثال تصويراً لجانب منها.

- ثم أن العديد من الأمثال الشعبية تقران بين حيوانين، يمكن أن يكونا مختلفين في الطباع، تؤشر على جوانب سلبية عند هذا وإيجابية عند ذاك، أي أنها تفضل واحداً على آخر.

وسأعمد هنا إلى تناول هذه الحيوانات منفردة، حسب عدد الأمثال الخاصة بها والمتوفرة بين يدي، مؤكداً أنها ليست الحصيلة النهائية للأمثال الشعبية التي تعاملت مع الحيوانات، فهناك ما لم يتيسر لي الإطلاع عليه.

1- **الكلب:**

لفظ أسقط المثل الشعبي الكثير من صفات الحقارة والدونية على الكلاب، ويمكن رد ذلك إلى المعتقد الديني الذي يقول بنجاسة الكلاب وعدم طهارتها، مما جعلها مرفوضة في الحياة الداخلية الذي اكتفى بإسناد دور الحراسة والحماية لها، هذا الدور الذي ينتهي بانتهاء الفائدة منها، ومع ذلك لم يشفع لها هذا الدور بالاحترام ولم يعطيها أية قيمة معنوية واضحة.

بعض إيجابية الكلاب ما جاء في المثل:

كلب يعوي معك ولا كلب يعوي عليك

وأن الكلب ما يعفش ذان أخوه

وما عدا ذلك فإن الكلب وين ما بقعد بنجس

ومن كل الكلاب فش كلب طاهر.

ولأن الغدر صفة من صفات الكلب، فقد دعا المثل الشعبي إلى مداراته مؤقتاً داعياً إلى التنازل عن بعض المفاهيم السائدة في المجتمع تنفيذاً لمصلحة أو إرضاء لرغبة، كقوله (بوس الكلب من ثمه تاتقضي حاجتك منه) وأيضاً (اللي يحتاج الكلب بيقوله يا حاج أحمد)، ولأن وظيفة الكلب – وفي الغالب هي الحراسة – معروفة فقد (خربت المكثاة واللي عند كلب جواه) أي طرده، بعد انتفاء الحاجة إليه بخراب الكرم الذي كان يحرسه.

ومعروف أن الكلاب تتواجد في الأماكن المهجورة، ولذلك فإن (الدار بلا باب مأوى للكلاب) وأن (اردى الأبواب برد الكلاب) وفي هذا إشارة واضحة إلى ضرورة الاعتناء بالبيوت وأسيجتها كي لا تكون مكاناً لإيواء الكلاب.

وفي مكان آخر يؤكد المثل على ضرورة التواصل الاجتماعي بين الناس لأن (اللي ما عنده حباب بتزوره الكلاب) أي أن هذه الكلاب لا تقترب من البيوت التي تدب فيها حركة الحياة.

ولأن الكلاب تتمتع بهذه الصفات الحقيرة والدنيئة، فإن طعامها أيضاً يحمل نفس مواصفاتها، وهنا يقول المثل (موت الحمير فرج الكلاب) إذ فيه وجبة دسمة وشهية لها ولأن هذا هو طعامها فإن (الزلابية السخنة محرمة ع الكلاب) وأن (الكلاب ما بتوكل هيطلية)، ومن هنا فقد قال المثل بلجهة استنكارية تحمل طابع السخرية (الميت كلب والجنازة حامية)، أي أن الكلب لا يستحق كل هذا الاهتمام، بل أن الذي يليق به أن يكون (الميت كلب والمعزية نورية).

ولأن الكلب المربوط بيوكل رز ولحم، والكلب الفالت بيقرقط عظام، فقد حذر المثل من الاعتناء الكثير بالكلاب حين قال (سمن كلبك بيوكلك) كدليل على الغدر المتأصل في نفسية الكلب الذي يظل هو هو مهما جرى تزيينه أو العناية به لأن (الكلب كلب ولو طوقته بالذهب) وفي كل الأحوال فإن هذا الكلب لن يخرج عن طوره ولن يبذل سجاياه فهو (كلب وخلف جرو) وكذلك فإن (ذنبة الكلب عمرها ما بتصح).

ومهما حاول المثل أن يحسن من صورة الكلب بقوله (كلب الشيخ شيخ) فإنه سيظل مرفوضاً ومستثنياً من اعتبارات كثيرة تؤكد نظر المجتمع إليه التي أكدها المثل القائل (إذا كانت الحماة بتحب الكنة بتطيح الكلاب الجنة) كتعبير شعبي متوارث.

ومع هذه الصفات الكثيرة التي أسقطها المثل على الكلاب، إلا أنه أعتبرها أحياناً حالة أفضل من بعض أفراد المجتمع، فإن (اللي بخبط على ذيل الكلب بعضه) في الوقت الذي يتنازل فيه البعض عن جانب من حقوقهم.. هؤلاء الذين ينطبق عليهم المثل القائل (راح يرط واجا يرط كلاب الزط أحسن منه) بدليل أنه لم يقم بأي أعمال يشار إليه.

ما يلاحظ على مجموعة هذه الأمثال التي تناولت مكانة وصفات الكلاب، أنها لم تتطرق أبداً إلى صفة الوفاء المتوفرة في الكلاب، والتي يتحدث عنها الشعر والتراث العربي.. إنما ركزت على الصفات السلبية للكلاب.

ثم ملاحظة أخرى وهي أن الكلاب المقصودة هنا هي التي تعيش وحدها أو ترافق الرعاة، وليست تلك الكلاب التي تعيش اليوم في بيوتات الطبقات المرفهة، التي هي ربما لم تكن معروفة بعد من قبل الفلاح المعني أكثر من غيره بالأمثال الشعبية وموضوعاتها.

2- **الخيول:**

وهي ما جاءت في الأمثال بأسماء الخيل أو الخيول أو الفرس أو المهر.

للخيل عند العرب مكانة خاصة ارتبطت لديهم بالفروسية، وفي التراث العربي الكبير من الروايات التي تؤكد مكانة الفرس أو الحصان عند صاحبه، مما يعطي الخيول أهمية استثنائية في حياة العربي الذي وصفها بصفات فيها من العزة والآنفة والكبرياء، مالا يتوفر في غيرها من الحيوانات.

والمواطن العربي باعتباره جاء من أمة العرب، فقد ورث أيضاً هذه العلاقة مع الخيول، والتي وضعها في المنزلة الرفيعة وفي الدرجات الأولى في سلم اهتماماته بالحيوان، حتى أن الخيول ارتبطت بالواقع الطبقي والاقتصادي والاجتماعي للناس، إذ لم يكن الجميع قادرين على امتلاك أي نوع من الخيول، وظلت بالنسبة للفلاح تشكل فرحة كبيرة يسعى إلى تحقيقها، ولهذا فقد أفرد المثل الشعبي مجموعة من الأمثال التي تدلل على مكانة الخيول في المجتمع، فهو قد اعتبرها ثالث أركان السعادة بالنسبة للرجل حين قال (السعادة بثلاثة: الدار الوسيعة والمرة المطيعة والفرس السريعة) وكان امتلاك الفرس أو الحصان يشكل حدثاً غير عادي في حياة أي رجل، يؤهله لإعلان فرحته التي من المتوقع أن يشاركه فيها حتى الأقرباء البعيدين، وهذا المثل يؤشر مثل هذه الحالة (مالك بتمشي وبيدك جرس قال انسيب انسيبنا اشترى فرس)، ولأن الخيل تملك مثل هذه المواصفات وهذه المكانة المميزة في المجتمع فقد عمدت الكثير من الحيوانات للتشبه بها، حتى الفأر الذي قال فيه المثل (جابوا الخيل تايحذوها أجا الفار مد رجله)، هذا المثل الذي يعبر في واحد من جوانبه أيضاً على صراع طبقي، وعن ضرورة التمييز بين الطبقات المتفاوتة في

المجتمع، حتى لو كان ذلك في أوساط الحيوانات، إلا أنه فشل في ذلك وعبر عن هذا الفشل بقوله عن طريق المثل (بحطك بين الخيل بلقاك بين القرار).

لكن هذه الخيول لا تكتسب قيمتها وأهميتها وصفاتها لمجرد كونها خيولاً فقط، بل يعتمد ذلك على فارسها لأن (المهرة من خيالها)، ومهما كانت الفرس فإن جوهرها هو المعني بهذا الاحتفال لأن (الفرس ما بعيبها جلالها) ولا خوف عليها في المهمات الصعبة التي خلقت من أجلها، فإذا كان (لكل جواد كبوة) فإن (الخيل الأصايل بتجود في الآخر) وتظل الخيل هي الحيوانات المقترنة بالفروسية، وما عدا ذلك يظل باطلاً مهما حاول الآخرين تزويقه، وحتى لو غابت الخيل فلا يستطع أي حيوان آخر أن يسد مكانها، ومن هنا نفهم التهكم والسخرية التي تناول المثل فيها هذا الموضوع بقوله (من قلة الخيل شدوا ع الكلاب سروج) فلا السروج نفعتها ولا هي قامت بمهمة الخيول.

والفرس حتى تنجح في أداء مهمتها فإنها تحتاج إلى نوع خاص من (التعليق) وإلا فإن أي طعام غير هذا سيضعفها ويمنعها من القيام بمهمتها على أكمل وجه، ولهذا نرى الفلاح الفقير ضعيفاً أمام فرسه، حين لا تستطيع تقديم الشعير لها، لذلك نسمعه يقول لها على لسان المثل (يا فرس لا تلوميني على العليق وما بدي منك طراد).

ويبقى للفارس أو لصاحب الفرس دوراً خاصاً في الاهتمام بها، ولا يجوز التفريط بهذا الدور، ولا يجز الاستغناء عنه أيضاً لأنه (من خيلك اربط على وتدك) وكذلك (يا مداوي الخيل من عند روسها داوي حصانك من عند زره زاغ) فمن لا يهتم بفرسه لن يكون مؤهلاً للاهتمام بخيول الآخرين، هذا الاهتمام قارن المثل فيه الحصان باللسان بقوله (لسانك حصانك أن صنته صانك وأن خانته خانك)، أي بقدر ما تكرم حصانك فإنه سيكرمك.

ويلاحظ من مجموعة الأمثال التي تناولت الخيل، أنها كانت جميعها إيجابية بما يتعلق بصفاتها وأهميتها في حياة الناس، وهذا دليل وعي المثل الشعبي لدور ومكانة الخيول في الحياة العربية، وما يعنيه اقتناء الخيل من (وجاهة) اجتماعية في مفهوم الناس جميعاً.

3- **القطة:**

وردت أسماء القط والقطة، والبس والبسة، في عدد من الأمثال الشعبية، معتمدة على عدد من المعتقدات الدينية والأسطورية في النظر للقطة والتعامل معها، ولعل في مقدمة ذلك الحديث النبوي الشريف الذي أشار لتلك المرأة التي حبست الهرة، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض، لذلك قال المثل الشعبي (خطية القط ما بتنط) مما ولد شعوراً عاماً لدى الناس بأن القط له (خطية) وبالتالي لا يجوز إيذاؤه.

ثم أن هناك معتقداً يقول بأن القطة بسبعة أرواح، وبالتالي فهي تنتصر دائماً على الأخطار وتستطيع الحفاظ على حياتها في أحلك الظروف، ليستفيد المثل من هذا المعتقد ويقول (مثل البساس بسبع أرواح).

والمعتقد الآخر هو ذلك الذي يوفر للرجل العطوة والهيبة في بيته وأمام زوجته تحديداً... حين طالبه المجتمع بضرورة قطع رأس القط أمام زوجته في ليلة عرسه، مما يضفي عليه هالة من القوة والجبروت تجعل منه الآمر الناهي في بيت الزوجية الجديد، ولمن لا يتمتع بهذه الصفات، خاطبه المثل معاتباً بقوله (ليش ما ذبحت بسك في ليلة عرسك).

لكن التعامل مع القطط، والنظرة إليها لم يكن ضمن أجواء هذه المعتقدات فقط، فقد اكتشف الناس أن القط هذا الحيوان الصغير بحجمه البعيد من الإيذاء المباشر للإنسان يتحول إلى أسد جارح حين تتعرض حياته للخطر، وللتدليل على ذلك قال (احشر البس بيصير سبع) وكذلك فالمطلوب من الذي يريد أن يلاعب القط أن يتحمل أذاه (اللي بيلاعب القط بيصبر على خراميشه).

وربما أراد المثل من الرجل أن يكون حازماً في رأيه وقراراته غير هياب ولا متردد، وقد دعاه إلى تجريب ذلك مع القطة (الخوافة) قائلاً له (بدل ما تقول بس، اكسر رجلها).

وقد ارتبطت القطة ارتباطاً وثيقاً في حياة الناس وذاكرتهم أيضاً بعلاقتها العدائية المتوفرة دائماً مع الفأر، وقد انتبه المثل الشعبي إلى هذه العلاقة فجسدها بقوله (أن غاب القط ألعب يا فأر) لأن الفأر لا يستطيع اللعب أبداً في حضرة القطة.

من هنا نرى أن المثل الشعبي كان أكثر اعتدالاً وطمأنينة في التعامل مع القطط قياساً بالكلاب مثلاً، فالقطط أكثر قبولاً لدى الشخص وبيته، ربما لأنها تمنع الفئران من العبث بمحتويات البيت، ثم لأنها – أي القطط – لا تعتدي على أفراد الأسرة بشكل مباشر عكس غيرها من الحيوانات.

4- **الحمار:**

وردت أسماء الحمار والحمارة والجحش والقر في عدد كبير من الأمثال الشعبية في عدد كبير من الأمثال الشعبية، ويمكن أن نرد ذلك إلى اعتبار أن هذا الحمار هو رفيق رحلة الفلاح في علاقته اليومية مع أرضه وأعماله، فهو يستعمله مطية للركوب ويمكن الاستعانة به للحراثة أيضاً، وكذلك لنقل الحاجيات وتسلق الطرق الوعرة واحتماله للأذى وصبره على التعب، ولرخص ثمنه مقارنة بالخيل والبغال.

فلا نبالغ إذا قلنا أن الحمار قد وجد في أرض وبيوت الفلاحين جميعاً، ومن هنا اكتسب كل هذه الأمثال.

ويمكن تقسيم نظرة المثل الشعبي إلى الحمار إلى ما يلي.. معتمدين في ذلك على مجموعة الأمثال التي بين أيدينا:

- **فهو أولاً** مثال للحقارة والدونية والاستصغار، حيث لم تشفع له كل تلك الخدمات التي قدمها لأصحابه، وقد عبرت عن ذلك مجموعة من الأمثال هي: (القر أول ما بيجرب سمه بأمه) وأيضاً (زي اللي بتعلم البيطرة في حمير النور)، وكذلك (إذا أنا أمير وأنت أمير، مين يسوق الحمير)، و(شو عرف الحمير بأكل الزنجبيل) و(لو كان في الشعر خير ما طلع على أذناب الحمير)، وأيضاً (المديون حمار الداين) (ولما يطلع الحمار ع الميذنة).

- **وثانياً** هو مثال للغباء والبلاهة، وقد عبرت عن هذه الحالة مجموعة أخرى من الأمثال الشعبية هي:

التكرار بيعلم الشطار، وأيضاً (العلم للكبير مثل الدب في الحمير)، وكذلك (عمر العدو ما بصير حبيب إلا لما يصير الحمار طبيب) و(راح الحمار يطلب قرنين رجع بلا ذنين) و(اللي بعمل حالوا حمار الكل يركب عليه).

- **ثالثاً** هو مثال للصبر والتحمل وعدم الشكوى، وقد عبرت عن ذلك الأمثال التالية:

(زي حمار الحجارة شهوته بتظل في ظهره) وأيضاً (دخلنا داركم وشفنا فشاركم وعرفنا عشاكم ومن عشا حماركم) وكذلك قول المثل (اربط الحمار محل ما بدو صاحبه).

- **رابعاً** هو وسيلة لمآرب أخرى.. أي يمكن استعماله للحصول على منافع خارج دائرة قدرته ووظيفته.. معبراً عن ذلك بالأمثال الشعبية التالية:

(لولا ركبت ع جحشي ما دريت شو بخرجي) وأيضاً (ركبناه ع الحمار من أيدو ع الخرج) وكذلك (اللي بقدرش ع الجحش بقدر ع البردعة).

- **وخامساً** هو نزق لا يمكن الاعتماد عليه أو الثقة فيه لمجموعة من الاعتبارات التي حاولت الأمثال التالية تفسيرها:

(قر وفارق أمه) وأيضاً (لا تؤخذ رأي المرة ولا تتبع الحمار من ورا) وكذلك (البيت ضيق والحمار رفاص)، و(ترمي شورا حمارتك قر) وأيضاً (لا تشتري حمارة وأمها في الحارة).

واعتماداً على ما سبق، قد يكون الحمار هو أكثر الحيوانات التي ظلمها المثل الشعبي وحيث لم نجد له صفة إيجابية واحدة بين تلك الأمثال المتوفرة لدينا، مع الاعتراف بدوره المهم في حياة الفلاح سواء داخل القرية أم في الأرض والزراعة وأنواع العمل المختلفة.

5- **الخروف:**

وردت أسماء الخروف والنعجة والضاني والتيس والجدي والعنزة والغنمة والشاة والسخلة في عدد من الأمثال الشعبية، أثرنا ضمها في مجموعة واحدة باعتبارها من أسرة واحدة، تكاد تتفق في الكثير من الصفات والمزايا والأغراض أيضاً.

فالمثل قد اعتبر لحم الخروف في أول درجات سلم الطعام الجيد، باعتبار أن تربية الخراف بظل في الدرجة الأولى من أجل الحصول على لحمها، ومع ذلك قال المثل الشعبي (أن قل الضاني عليك بالقطاني) فيما أكد أن (بصلة الحب خروف) انطلاقاً من وجود النية الحسنة التي يقيدها ضيق ذات اليد، ولأن لحوم الخراف هي المطلوبة دائماً، فلا مانع والحالة هذه، إلا يتم الالتزام بالسن والأقدمية فيها، لأنه (ياما خروف سبق أمه على المسلخ).

فإذا كان المثل الشعبي قد رأى في الخروف لحمه الشهي، فإنه لم ير ذلك عند الماعز التي نظر إليها نظرة فيها الكثير من التندر والاستخفاف فهي (عنزة ولو طارت) وكذلك قوله (الطول طول النخلة والعقل عقل السخلة) لكن ليس كل الماعز، مما يؤكد أن هذا المثل لم يكن محايداً دائماً بل كان يسعى إلى كسب ود الطبقات الاجتماعية الأكثر رقياً حيث أن (شاه القاضي ما بتتأذى).

وقد نظر المثل الشعبي إلى الماعز والخراف بطريقة أخرى مؤكداً أن (كل شاة معلقة بعرقوبها) اعتماداً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وكذلك فإن (الذيب ما بيوكل إلا الغنمة الشاردة) و(من صار نعجة أكله الذيب) لكن ذلك لم يمنع المثل من توجيه الفلاح بقوله (لما تدر عنزتك أحلبها).

في الوقت الذي استغرب فيه المثل الشعبي أقدام المرء على الإدعاء بما ليس فيه قائلاً (جدي بدو يلعب براس تيس).

وإن مصطلحاً مثل (الغنم ع الخروبة) يكاد يتردد في معظم الجلسات التي تضم الفلاحين كتحذير لمن يريد أن يتحدث بشيء يخص شخصاً موجوداً في الجلسة، فيسارع

أحدهم إلى الجهر بالمصطلح، كنوع من الردع الفوري للمتحدث، يدعوه إلى قطع الحديث أو تغيير اتجاهه رأساً، منعاً للإحراجات وحتى لا يفسد عليهم جلستهم.

إن المثل الشعبي الذي رفع من قيمة لحم الضأن الغذائية، لم يرفع السخول والماعز إلى الدرجة نفسها، معتبراً إياها في درجة أدنى من الخراف.

6- **البغل:**

هو الحيوان الوحيد الناتج عن تزاوج نوعين مختلفين من الحيوانات، فأبوه الحمار وأمه الفرس، وهو عاجز عن التناسل فيما بين أفراده، نتيجة إرادة إلهية، فلربما ارتبطت هذه الحالة بوعي صائغ المثل - الذي هو صاحب المثل بالضرورة- ليعبر عنها بطريقة فيها الكثير من الاحتقار لهذا الحيوان، الذي يعترف الجميع بأنه الأكثر قدرة على ممارسة الأشغال الشاقة، كحمل الأثقال والحراثة وغيرها مما يتطلبه عمل الفلاح في أرضه.

وقد تدخل المثل الشعبي في صلب نسب البغل حين قال (سألوا البغل مين أبوك، فقال خالي الحصان) و لا يخفى مقدار التندر والتهكم في هذا المثل.

وقد ورد اسم (القديش) الذي يعني عند الفلاحين تسمية مرادفة (للبغل) في العديد من الأمثال التي اعترفت ضمناً بقوته ومقدار الحاجة له في شبابه حين تقول (مثل البغال كل ما كبرت بقل سعرها) مما يعني أن سعرها كان مرتفعاً قبل أن يصيبها العجز والهرم.

لكن هذا البغل يظل مظلوماً ومغبوناً في نظرة الناس له انطلاقاً من الأمثال القائلة (بغال الخزين بتحمل ذهب وبتوكل نخاله) وكذلك (فلان مثل البرسيم ما يرعاه إلى القديش) و(موت يا قديش تايجيك الحشيش) إلا أن هذا البغل الذي يبدو مظلوماً يحاول ما في وسعه أن يعبر عن رفضه لواقعه، بالفعل لا بالصمت، معبراً عنه بالمثل القائل (مثل البغال بتناوله المخلاة بناولك الجوز) والجوز هنا هي الركلة القوية بقدميه الخلفيتين، كدليل على عدم الوفاء أيضاً.

فإذا كان الخال في الأمثال الشعبية أخذ حصة واضحة في التعبير، وكثيراً ما تتم الشفاعة لابن الأخت إذا كان خاله رجلاً شهماً، لكننا هنا نرى أن خؤولة البغل لم تشفع له، ولم تعطه جانباً ولو قليلاً من الوجاهة والاحترام الذي يتمتع به خاله (الحصان) وأمه الفرس.

7- الثوروالبقرة

ربما تميزت البقرة عن غيرها من الحيوانات بأكثر من وظيفة تؤديها في الحياة، وقد انتبه الفلاح لهذه الوظائف وأحسن استغلالها جيداً فهي تستعمل للحراثة، وللحصول على الحليب، وللحم، وللتناسل والتكاثر أيضاً، مما يعني منذ البداية تنوع الأمثال وتنافضها كذلك، التي جاءت في وصف البقر والثيران وفي العلاقة بينهما.

فالحراثة وحدها كانت حصتها عدد من الأمثال الشعبية هي (عمر النسوان ما ربين ثور يحرث) وذلك لأن الثور بحاجة في بداية عمره العملي إلى تدريب وترويض، قد لا تستطيع النساء أتقانه، وذلك فإن الذي (ثوره ابن بقرته، وحراثه ابن مرته، فلاحته كلها ريح) ليصل إلى واحد من أكثر الأمثال الشعبية عمقاً ووعياً وطنياً (ما يحرث الأرض إلا عجولها).

لكن هذا الثور بكل وظائفه التي أشرنا إليها لم ينج من طائلة لسان المثل الشعبي المتهكم والذي قال (بتقول ثور بيقول أحلبوه).

وكذلك (فلان مثل الثور الأبرق) (وثور الله في برسيمه) ليكون الثور أو العجل وسيلة انتهازية دعا من خلالها المثل الشعبي ومن يقف وراءه أو من له مصلحة في انتشاره إلى التسليم بالأمر الواقع، والإذعان لما هو سائد من نظم وتقاليد بقوله (أن جيت ع ناس بيعبدوت العجل حش وأطعمه)، وكأنه يريد من الفلاح أن ينسجم رغم إرادته، ورغم تقاطع ذلك مع قيمه ومعتقداته مع ما يحاول الإقطاعيون والسماسرة تكريسه في المجتمع.

لكن (هو كل عجل كيكب بدو ربط؟) مما يعني أن الكل ليسوا سواسية هذه المرة، والقابلون بالأمر هم (مثل الثور اللي ميكل حندقوق) يشعرون بالدوخة ويميلون إلى الكسل والتراخي.

وهكذا فإن الأمثال الشعبية التي تناولت البقرة والثور والعجل، كانت تدعو في بعض جوانبها إلى الأهمية التي ينتظرها الناس منها، وأن اعتمدت في الجانب الآخر لهجة التهكم والانتهازية.

8- **الجمل:**

لعل الصبر وعدم التشكي هي واحدة من أهم صفات الجمل المعروفة والمشخصة لدى كل من يعرف الجمل، أو على تماس مباشر معه، ما حدا بالمثل الشعبي إلى القول (مثل جمل المحامل لا بحكي ولا بشكي).

لكن الصبر ليس وحده الصفة المميزة التي ركز عليها المثل الشعبي في علاقته بالجمل، فهو قد انتبه إلى الآنفة والكبرياء التي يتصف بها هذا الحيوان، وربما كان حجمه الكبير وعلو جسده عاملاً مساعداً في إضفاء هذه الصفات عليه، فإذا كان (ثلاثة ما بتخبوش: الحب والحمل والركوب ع الجمل) فإن (الزلمة بلا تقية زي الجمل بلا ركبة) وأيضاً (ما كبير إلا الجمل) وكذلك (اللي بدو يصير جمال بوسع باب داره) ومع أن (صيت الجمل قتله) إلا أن المثل الشعبي قد أبدى إعجابه بالطريقة التي يأكل بها الجمل فقال (غُب غب الجمال وقوم قبل الرجال).

وبالمقابل إذا كان المثل قد اعترف بأنه (ياما كسر الجمل بطيخ) فقد وجه الإدانة لهذا الحيوان في أكثر من مثل، لأنه لم يستغل الحجم الكبير الذي تميز به، وظلت قوته الجسمانية أسيرة سلبيته وصبره الذي لفت الأنظار إليه، فقد قال المثل (جمل وخلف بعره) وكذلك (عشرين جمل بسوقهم حمار) وأيضاً (بعرة وقتلت وجمل).

وإذا كان (الجمل بنظرش لعوجة رقبته) ولأنه (يمشي وعرقوبه وراه، بشوف عيوب كل الناس وعيبه ما يراه) فقد حرص المثل الشعبي على إبراز بعض عيوب الجمل التي من

أهمها (مثل حراث الجمل اللي بحرثه بربصه) وأيضا مثل (فص الجمل لا هو في الأرض ولا في السما) وكذلك (زي الجمل اللي بعرج من شفته).

ولكي لا نكون مبالغين ونضطر إلى القول كما قال المثل (لا شفت الجمل ولا الجمال) فلا بد من الإشارة إلى خصلة سيئة يتصف بها الجمل، وهي الحقد والخبث الذي يدخره حتى تحين الفرصة للتعبير عنه، وقد قال عنه المثل (زي الجمل بحط في قلبه) هذا الجمل الذي يمكن أن يكون مصدر اشمئزاز كما وصفه المثل (زي الجمل الأجرب كل الناس بتتحاشاه) ويكون ضعيفاً لا حول ولا قوة وهو (زي القرادة في قفا الجمل).

وهكذا نرى أن قوة الجمل وصبره ومدى احتماله للمشقات لم تشفع له للتغاضي عن عيوبه، وإبراز محاسنه فقط، فجاءت الأمثال الشعبية التي تحدثت عنه تحمل في طياتها حسناته وسيئاته، لكن الجمل يبقى صبوراً وكبيراً، إذا ما قيس بغيره من الحيوانات ذات العلاقة المباشرة مع الفلاح.

9- **القرد:**

قد يكون القرد أكثر الحيوانات حظاً بهذا النوع من الأمثال التي جاءت مطابقة لتصرفاته وأفعاله التي ارتبطت في معظمها بالبهلوانية من وجهة نظر الناس، فالقرد الذي يكون مستعداً للقيام بالحركات الاستعراضية أمام المتفرجين ويلتزم بتعليمات سيده والتمرينات التي تعود عليها، لم تشفع له عند صائغ المثل الذي قال (مثل القرد طاعة وقلة أدب).

وفي موقف آخر، كان القرد نموذجاً للقبح والرداءة في تعبيرات المثل الشعبي الذي قال (يا ميخذ القرد على ماله، بروح المال وبظل القرد على حاله) وكذلك (أكثر من هالقرد الله ما سخط) محذراً بأنه اللي بفكر في القرد بطلع له).

والقرد شره بطبيعته، وهذه الصفة اكتشفها صائغ المثل أيضاً وعبر عنها بمجموعة من الأمثال الشعبية الشائعة منها (فلان بيوكل قد قردة والدة) وأيضاً (أنا بوفر والقرد بعفر) واصفاً الشراهة وعدم النزاهة بالقول (زي القرد اللي قسم الجبنة) ولكن هذه

الشراهة لا بد أن تنعكس عليه، ولا بد له من دفع الثمن حين يقول (زي القرد اللي أكل الحصرم).

ولكن القرد حيوان سريع الاحتفال بكل ما يقدم له (قرد ولقي له جرس) ومع ذلك فإنه بتقبيل العقوبات القاسية بمجرد أن يبقى على قيد الحياة (سلم القرد بمعط الجلد) لكنه ليس ساذجاً تماماً لأنه يعرف كيف يعتني بأشيائه كقول المثل (ليش حاطط قردك ع طحيناتي)، ومع ذلك يظل القرد رغم بشاعة منظره قريباً إلى من يستلطفه ويستهويه (حب من تحب ولو كان قرد ودب).

10- **الغزال :**

ربما كان الغزال هو النقيض الأكثر وضوحاً للقرد في التعبير الشعبي، خاصة من وجهة نظر جمالية بحتة، ولأن هذا الغزال إضافة إلى جماليته فإنه يتمتع بقدرة فائقة على الجري السريع، مما جعل منه موضوعاً لعدو أمثال شعبية التي في معظمها مقارنة للغزال بحيوان آخر على النقيض تماماً، فيقول المثل (القرد في عين أمه غزال) ويقول أيضاً (قرد موالف ولا غزال مخالف) ولا يخفي كم هو مقدار التنازل الذي أقدم عليه صائغ المثل بهذا التعبير، ليؤكد في مثل آخر مشابه هذه الحقيقة (جحش تركبه ولا غزال يعتفص فيك)، فيما يذهب مذهباً آخر في المقارنة حيث يقول (الغزال بيوكل والكلب مشحتك) وقوله أيضاً (وين كلبك والغزال).

ولا ينكر المثل سرعة الغزال وحذره من الصيادين بقوله (متحري من طقعان صيد غزلان) وكذلك قوله (لو تجري جري الغزال غير نصيبك ما بتنال).

ربما لأن الغزال كان صيداً عزيز المنال على الناس الذين اعتبروه طعاماً خاصاً بعلية القوم، لذلك جاءت الأمثال الشعبية التي تناولت الغزال وركزت على إيجابياته فقط، لأنه لم يكن هناك مبرر لرفضه، وإلا لكان هذا الرفض غير حقيقي وغير منطقي أيضاً، وتظل هناك رغبة أكيدة تراود الفلاح وأشجعها في امتلاك الغزال، وإلا لما اضطر لمقارنته مع حيوانات على النقيض معه تماماً، كالقرد والكلب.

11- **الأسد :**

لأن الأسد ملك الغابة وسيدها، ولأنه كبير الحيوانات وأشجعها، فقد جاءت الأمثال الشعبية التي تحدثت عنه تتحدث أيضاً عن الشجاعة والإقدام، وتسقطها على ما يتمتع بنفس الصفات من بني البشر.

فالأسد والسبع كلمتان تردان دائماً في الأمثال الشعبية مرادفتان للقوة والجبروت والكبرياء، كقول المثل (نام في ظل السبع ولو أنه بوكلك) لتشعر بالطمأنينة وتنأى بنفسك عن الطعن في الظهر والغدر التي هي ليست من شيم الأسود، وكذلك قوله (بين السبع ما بخلي من العظام) وهذه ميزة أخرى تؤكد وجاهته وأهليته لقيادة مملكة الغابة، فيما أشار المثل إلى أن (الحرة سبع والرجل كلب) إذا حاول استغلالها أو التعرض لها، ولأن الأسد يتمتع بكل هذه المواصفات فقد حذر المثل من غضبه وثورته بقوله (إن سلمت من الأسد ما تطعمش في صيده) لكن الأقوياء والوجهاء دائماً يكونون معرضين للاستغلال، ويمكن أن تسرق جهودهم من قبل من لا يستحقها، فقال المثل (حرثوها السبوعة وحصدوها الضبوعة).

ويحاول الإدعياء والكذابون أن يخلقوا لهم بطولات زائفة على حساب الأقوياء المعروفين والذي قال المثل على لسانهم (هذيك الأيام كان الأسد يشخ دم) إلا أن هذا الأسد يجب أن يحافظ على دوره ومملكته، ففي الوقت الذي يتغاضى فيه عن أداء مهمته يكون (كلب داير ولا سبع نايم) وهذه من قبيل المبالغة والاستفزاز، وأيضاً لا يخفي على الكثيرين منا قصة القصيدة الشعبية الذائعة الصيت الذي يقول مطلعها (يا سبع جاي من ميثلون) والتي ذهبت مثلاً.

12- **الواوي:**

هو الواوي أو أبو الحصينات أو الحصيني، كما جاء في الأمثال الشعبية، ولهذا الحيوان علاقة مباشرة مع الفلاح ارتبطت بالعلاقة المتوترة دائماً بين الواوي من جهة ودجاجات الفلاح من جهة أخرى، والتي شكلت دائماً وجبة سهلة دسمة للواويات،

لكن الواوي لا يقترب من بيت الفلاح إذا كان فيه كلب ينبح، لذلك كانت واحدة من مهمات الكلاب، الحراسة وطرد الواويات وغيرها من الحيوانات عن بيت الفلاح ومقتنياته، وقد جاءت مجموعة الأمثال الشعبية التي اتخذت من الواوي موضوعاً لها، في لهجة من التهكم والاستصغار والاحتقار أحياناً، لأنه لا يفعل فعلته إلا في الليل، ولا يستطيع مواجهة أحد لخوفه وعدم قدرته على المواجهة.

وسيكون هذا واضحاً لنا عند استعراض مجموعة الأمثال التي بين أيدينا مثل:

(ما بتلاقي الفص الحزق إلا عند الواوي الضعيف) وأيضاً (ربك يكسر جمل عشان عشوة واوي) و(ضربها أبو الحصينات وعشرت) و(كل حصيني في بلاده ذيب) وكذلك (واوي بلع منجل عند خراه بتسمع عواه).

13- الغول والذيب والخنزير والضبع والدب:

لأن الأمثال الشعبية التي اتخذت من هذه الحيوانات موضوعاً لها قليلة ومعدودة على الأصابع، حسب ما هو متوفر لدينا – لذلك سنتناولها بالحجم الذي احتلته في الأمثال وفي الذاكرة الشعبية.

- فالغول:

هذا الحيوان الأسطوري، الذي ارتبك بالقبح، فهو حيوان ذميم عند الناس (فلانة مثل الغولة).. وهو كذلك مفترس لا يرحم، ويأكل كثيراً.

وقد رسمت الذاكرة الشعبية – من اختراعها – صورة للغول والغولة وضعت فيها، كمل ما هو سيء وقبيح فقال المثل (فولة وما بطوق على ثم الغولة) لأنه فم كبير حتماً، وقال أيضاً (عند الغولة عرس) أي أنها منشغلة فيما هو أهم، والذي هو ربما افتراس المدعوين.

غير أن الغول احتفظ بواحدة من الصور الإيجابية في الذاكرة الشعبية وهي رأفته بأهل بيته، حيث قال المثل (الغول أكل كل الناس إلا مرته).

ولأن الغول ارتبط في التراث العربي – مقترناً بالعنقاء والخل الوفي – بأنه أحد المستحيلات الثلاثة، إلا أن الذاكرة الشعبية حاولت أن ترسم له صورة قريبة إلى حد ما من تلك الصورة التي جاءت إلينا من التراث العربي.

والذيب أو الذئب:

هو العدد الأول للراعي، وتشكل غنمات الراعي وخرافه وجبة دسمة للذئاب، لذلك فإن الراعي يحرص دائماً على اقتناء كلب يرافقه في رحلة الرعي، كي يساعده في اكتشاف الذئب ومطاردته بعيداً عن القطيع.

وهنا قال المثل (الذيب ما بيوكل إلا الغنمة الشاردة) مؤكداً أن (من صار نعجة أكله الذيب) ولذللا لابد أن يكون الإنسان نداً قوياً لأعدائه، مستفيدين من المثل الفصيح القائل (إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب) ولأن الغدر صفة من صفات هذا الحيوان المتوحش فقد قال المثل الشعبي بصيغة استنكارية (مين بيجيب الذيب ع باب داره؟) أي أن الإنسان يجب أن يكون حريصاً على داره وأهل بيته، فلا يأتي إليهم بما يهددهم أو بما يغدر بهم.

والخنزير:

الذي جاء تحريم لحمه في القرآن الكريم، فإنه حيوان نتن له رائحة كريهة أيضاً، فهو حيوان اقترن في الذاكرة الشعبية بالحرم والمحرمات، ومع ذلك فإن المثل الشعبي رأى أن أي استفادة ممكنة من هذا الحيوان - عدا لحمه – هي واجبة، وربما تكون حلالاً أيضاً حين قال (شعرة من قفا الخنزير حلال).

والضبع:

حيوان ربما كان بحجم الكلب أو أكبر قليلاً، يعيش متخفياً في الكهوف والغابات، ولا يظهر إلا في الليل، وقد يسمع المرء حكايات كثيرة من بعض الفلاحين بأنهم رأوا الضبع، ويؤكد بعضهم أن عينيه تصدر بريقاً في الليل، وهو يمشى متسللاً في الليل، يحاول

الاقتراب من بيوت الفلاحين البعيدة عن مركز الحركة والضوضاء، لذلك نسمع المثل يقول (مالك بتتضبع) أي بتمشي بهدوء وتتلفت يميناً ويساراً، أي تشبه الضبع في مشيتك.

ولأن الضبع حيوان ليلي فقد قال المثل (حرثوها السبوعة وحصدوها الضبوعة) أي أنهم حصلوا على كل شيء جاهزاً، لغياب أصحابه الحقيقيين وكثيراً ما يردد الفلاحون أن الضبع (ضبع) أي سيطر عليه واستدرجه إلى كهفه ليفترسه، والشخص المضبوع كما يؤكد الفلاحون أيضاً يعود له رشده، حال تعرضه إلى نزيف من أي جزء من جسده، وأن الضبع يخاف من الضوء والنار، لذلك فهو لا يقترب من أي مكان فيه نار مشتعلة.

الدب:

أما الدب فكان لكبر حجمه وقيحه وسذاجته مجالاً لتندر صائغي المثل الشعبي وهو كما نعتقد بعيد جداً عن يوميات الفلاح وربما لم يشاهده، إلا أن المثل الشعبي خصه بعدد من الأمثال التي ترسم صورة لهذا الحيوان، وكيف فهمها وتعامل معها الناس.

يقول المثل (نزل الدب تايرقص قبل سبع تنفس) وقال أيضاً (حب مين تحب ولو كان قرد ودب).

14- **الفأر:**

الفأر عدو واضح من أعداء الفلاحين، صحيح أنه عدو ضعيف لكنه مؤذ، فالحبوب التي يجمعها الفلاح من أرضه مستهدفة من قبل الفئران، وكذلك ثيابه وفراشه، إضافة إلى النجاسة المعروفة عن الفأر، وحرص الفلاح على تربية القطط في بيته، لتكون واحدة من مهماتها مطاردة الفئران والقضاء عليها، وكثيراً ما كان الفلاحون يتنذرون على المعارك الدائرة في بيوتهم بين القطط والفئران، فقال المثل الشعبي (أن غاب القط ألعب يا فأر) لأن الفأر لا يمكنه الظهور بوجود القطط والفئران غالباً ما يأخذها غباؤها إلى المصيدة (زي فيران الخماره، عمي وسكارى).

15- **الحية والعقرب:**

أجمعت الأمثال الشعبية على أن العقرب أكثر لوماً وخبثاً من الحية، لـذلك جـاءت هذه الصفة ملازمة للعقرب في كل الأمثال التي تحدثت عنه، فقال المثل (محـل العقـرب لا تقرب، محل الحية أفرش ونام) وقال أيضاً (الأقارب عقارب).

والحيايا (جمع حية) التي تسعى في الأرض، لها وقت تخرج فيه من جحورهـا، ففـي (سعد الخبايا بتطلع كل الحيايا) وهي أن كانت أقل لؤماً بالنسبة لصائغي الأمثـال، إلا أن الحذر منها واجب، لأن (عمر الحية ما بتصير خية)، ومع ذلك فهناك شـراهون مـن شـر، لذلك قال المثل (صباح الحية، ولا صباح البنية) والحية لها شكلها وجسمها وجلدها الذي تغيره كل عام، لذلك فإن صفاتها لا يمكن أن تنطبق على غيرها، لأنه (اجت الدودة تقلد الحية انقطعت).

إن اللدغة المسمومة هي التي تشترك بها العقارب والأفاعي (الحيايـا) لـذلك فهمـا مقترنتان بالنسبة للفلاحين، فإذا ما ذكر العقرب ذكرت الحية رأساً، والعكس صحيح.

16- **السمك:**

قريباً من الحيوانات التي تعامل معها المثل الشعبي، سنتطرق هنا إلى بعـض الأمثـال التي اتخذت من السمك موضوعاً لها.

والسمك كما هو معروف يعيش في البحر، لذلك فإن المواطنين الأقرب إلى البحـر هم الذين يصطادون السمك ويأكلونه من غيرهم، لأن أكلة السمك هي أكلة (مناسباتية) لدى الفلاحين البعيدين عن موطن السمك، لذلك لا نستبعد أن تكون هذه الأمثال هـي نتاج أهل الساحل على الأغلب، ومنهم وعن طريقهم تم تعميمها إلى باقي المناطق.

فقال المثل (مثل السمك يوكل الطعم وبخرا في السنارة) وقال أيضاً (مثـل الـسمك مأكول مذموم) على أنه كان واعياً لـصلاحية الـسمك حـين قـال (الـسمكة بتفـسد مـن رأسها).

ولخبرة الصياد ومعرفته بظروف وتقلبات البحر، صاغ مثلاً فيه ما يكفي من السخرية والتهكم حين قال (فلان مثل اللي يشتري سمك في بحر) السمكة التي تحوي عظاماً كثيرة تجعل من تناولها كوجبة طعام موضع احتمال بالإصابة بالازدراء أو الآلام، لذلك قال المثل بما يقرب من الدعاء على الخصوم والأعداء (حسكة وعظم سمكة) كنوع من الأذى الذي يصيب الإنسان.

17- **الطيور :**

وهي قريبة من اهتمام الفلاح، ولها معه علاقة مباشرة لذلك سنعمد هنا إلى تناول الأمثال التي تحدثت عن الدجاج والحمام والبط والبوم والعصافير المختلفة، بشكل أكثر اختصاراً من فصيلة الحيوان.

فالديك والدجاجة حظيا بالكثير من الأمثال الشعبية، ربما لأنهما رافقا صائغ المثل في بيته، فهو يربيها للاستفادة من لحمها وبيضها وريشها أحياناً، لذلك جاءت من الأمثال التي تحدثت عنها أكثر من غيرها من الطيور.

فالديك له هيبة خاصة بين الدجاج، فهو حاميها وقدوتها وقائدها أيضاً، لذلك فإن المثل أنصف الديكة كثيراً وتعامل معها بنوع من التقدير والاحترام، ويتضح ذلك من قول المثل (عيش يوم ديك ولا مية يوم جاجة) وقوله أيضاً (الديك الفصيح من البيضة بصيح) على أن الديك لا يخجل من ممارسه دوره وطقوسه الحياتية، سواء أمام دجاجاته أو غيرها، وقد وصفه المثل بالقول (لو استحى الديك ما قاقا) وهو (متعنتر) لا يتنازل عن وظيفته، وهنا داعبه المثل (من قلة الرجال صحنا الديك أبو علي).

أما الدجاجة فهي أكثر هدوءاً من الديك.. وهي التي تبيض وتفرخ لذلك جاءت الأمثال التي تناولتها مختلفة عن الديك، فقال المثل (بيضة اليوم ولا جاجة بكرة) وقال أيضاً (ثمه بيسع الجاجة وريشها) وأيضاً (الجاجة بتشرب ويتطلع لربها) وكذلك قوله (جاجه حضرت ع رأسها عفرت).

وهناك مثل شعبي يصلح أن يكون مثالاً للتندر بين الفلاحين وأبناء المدن، حين قال المثل على لسان الفلاح (المدني مثل الجاجة بتطعمه سنة بعيشك ليلة).

اما الحمام فله عند الفلاح اهتمام خاص، هذا الاهتمام ترجمة الوعي الشعبي في وجبة الأكل التي تقدم للعروسين في صباح زواجهما، والتي اتفق على أن تكون (زغاليل) أي أفراخ الحمام، لكن هذا الفلاح اكتشف أن تربية الحمام ليست ذات جدوى اقتصادية، قياساً بغيرها من الطيور والحيوانات، وهي للتسلية أكثر منها للتجارة، ومن هنا قال المثل الشعبي (اللي عنده مال ومحيره يشتري حمام ويطيره).

وتكاد تكون البومة أكثر أنواع الطيور شؤماً، فهي مرفوضة ومكروهة أيضاً عند عامة الناس، لذلك جاء المثل الشعبي المتعلق بالبومة ترجمة حقيقية للنظرة العامة إليها، فقد قال المثل (لو كان في البومة خير ما تركها الصياد) ثم أنه كان أكثر تطرفاً حين قال (رد ع البوم بدلك ع الخراب).

وربما أن المثل الشعبي لم ينبته للبطة أو للوزة إلا أنها تجيد السباحة، وبإمكانها أن تقضي وقتاً طويلاً في الماء، فكانت هذه الظاهرة هي التي لفتت نظر الذي صاغ المثل مترجماً لهذه الحالة حين قال (فرخ البط عوام).

وبسهولة يمكن ملاحظة اهتمام المثل الشعبي بالحيوانات أكثر من اهتمامه بالطيور، وذلك لأن وظيفة الحيوانات في حياته وعمله أكثر منها عند الطيور.

مؤكدين في الوقت نفسه أن البلبل والجرادة والعصفور والببغاء وغيرها قد وردت في أسماءها بشكل متناوب في الأمثال الشعبية، ولكن بشكل محدود أيضاً.

ثنائيات

المدن والقرى

ارتبطت أسماء عدد من المدن والقرى الفلسطينية بمجموعة من الأمثال الشعبية التي لم يقتصر تداولها على أبناء المدن والقرى المذكورة فقط، بل صارت أمثالاً منطوقة عند الشعب عامة، في كل مدنه وقراه.

وربما كانت مدينة عكا هي أكثر المدن الفلسطينية التي جاء ذكرها في الأمثال الشعبية وهذا – في رأيي- قد يعود إلى مجموعة من الأسباب أهمها:

أ. علاقتها بالبحر:

صحيح أن عكا ليست المدينة الفلسطينية الوحيدة التي لها علاقة مع البحر، فهناك ما يزيد على عشر مدن فلسطينية لها شواطئ بحرية، غير أن عكا تميزت عن غيرها بعلاقتها مع الغزاة الذين جاءوها عن طريق البحر، وكان لسورها وشجاعة أهلها وصمودهم أسباباً في طرد الغزاة وهزيمتهم.

ويحفظ تاريخ المدينة حملات نابليون، والحملات الصليبية وحملة إبراهيمي باشا بن محمد علي الكبير والي مصر، وكيف واجهتهم المدينة، فقال المثل:

لو عكا خايفة من البحر ما قعدت على الشط

شو بال عكا من هدير البحر

يا خوف عكا من هدير البحر

أ) ونتيجة وضعها هذا صار الوصول إليها محفوفاً بالخطر، فقال المثل في صورة مبالغ بها:

سافري لعكا ورواد ولا توخذي رجال عند ولاد

لكن عكا ليست مدينة قاسية أو موحشة، أنها مدينة جميلة ورقيقة، وهذا ما يؤكده المثل الشعبي، بهذا التساؤل الاستنكاري:

بيقولوا عكا وخمة

لكن المثل ظل ينظر للعكاوي نظرة حذرة، ربما لطبيعة هذا العكاوي الذي عاش أيام المحنة والحصار والغزوات والحروب.. فقال المثل:

سلم واقفي عكاوي

مما يدعو إلى عدم الطمأنينة لهذا لعكاوي الذي لا يطمئن بدوه لأحد:

وقد حظيت مدينة بيت جالا بمثلين.. يقول الأول:

عمره ما بطلع من بيت جالا موذن

الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذا المثل قيل على لسان أهل القرى المسلمة القريبة من بيت جالا... المدينة التي تسكنها أكثرية مسيحية.

ويقول الثاني:

خذي البيت جالي ولا تبالي

كتعبير عن الثقة والاعتداد بالنفس، في الوقت الذي تعامل فيه المثل مع بيت ساحور المدينة المجاورة لبيت جالا بشكل مختلف تماماً حيث يقول:

خذ الساحوري ولا تبوري

ربما أن ضرورة السجع في المثلين السابقين كان لها دور في صياغتهما، لكن هذا لا ينفي وجود حرب الكلام والأمثال بين المدن والقرى المتجاورة.

ونظر المثل إلى مدينة نابلس نظرته إلى أهلها التجار.. فقال:

شروة وما حضرها نابلسي

مع اعتقادي بأن نابلس بتاريخها وجهادية أهلها وتسميتها بجبل النار، كان يمكن أن تأخذ خصة أكبر من الأمثال الشعبية.

أما أريحا والغور... فقد تبادلا موقعيهما في مثل واحد.

زي مصيفين أريحا

زي مصيفة الغور

وفي اعتقادي لا يوجد تناقض بينهما، لأن الفلسطيني تعامل مع مدينة أريحا كجزء لا يتجزأ من الغور.. إن لم يكن عاصمة لها.

أما مدينة يافا فقد حمل عنها المثل الشعبي موقفاً أخلاقياً متديناً.. ربما لأن يافا كانت مدينة مفتوحة على الجميع وللجميع، ولأنها كما تذكر المصادر عروس المدن الفلسطينية وعروس البحر، لذلك كانت أكثر انفتاحاً من غيرها من المدن الفلسطينية، فقال المثل:

مثل شرموطات يافا

وليس بالضرورة أن يكن من بنات المدينة، لكنهن من القادمات إليها للعمل فيها، وربما تتضح الصورة أكثر إذا ما عرفنا أن مدينة يافا مشتبكة عمرانياً مع تل أبيب.

وكان لمدينة اللد حظها في الأمثال، لكن هذه المرة من خلال كلب من الكلاب التي تتردد عليها أو تعيش فيها.

مثل كلب اللد.. غرب فاتك شرق فاتك

وعودة إلى العلاقة بين المدن أو القرى المتجاورة والتي ارتبطت أسماؤها بالأمثال الشعبية، فهي هنا:

أما لضرورة السجع اللغوي

أو لحادثة طريفة وقعت في أحداها

أو للحد من المنافسة بينهما عن طريق الهجاء غير المؤذي:

شد... قربت الرملة ع اللد.

يعبد يا حصان عرابة فارس

خلف الله عليك يا بيت حنينا وشعفاط بتنقط عنك

العرس في عمورية وأهل المزارع برقصوا

العري في دبورية وأهل المجيدل برقصوا

واتخذ المثل من قول أو حادثة طريفة جرت في قرية محددة، موضوعاً له ليتناولها بنوع من السخرية أحياناً ويسهم في نشرها وتعميمها بين أبناء القرى والمدن، ومثال ذلك:

فروا أولاد يعبد وإلا لا قروا

هؤ ما في أعور إلا أعور الدير

زي عريس صيدا متعنتر

وهناك مطلع قصيدة شعرية لها قصة معروفة في فلسطين، أصبح بيتها الأول مثلاً متداولاً بين الناس، صحيح أنه قبل في حادثة معينة، لكن المثل هنا وظفه للتعبير عن كل الحالات المشابهة:

يا سبع جاي من ميثلون

لقيك واوي جفلك

ومثلما تعامل بعض المثل الشعبي مع نابلي بتجارة أبنائها، فإنه حاول أيضاً التعامل مع بعض القرى الأخرى من خلال ما يمكن أن يكون مشهوراً لديها، أو متعارفاً عليه بين الناس، فقال بصيغة لا تخلو من السخرية:

جاي تبيع السلق على أهل سلوان

وفي صورة حافلة بالتهكم والسخرية يظهر لنا المثل فيها موقفه من شباب قرية الرينة القريبة من الناصرة بقوله:

شباب الرينة كل عشرة بقطينة

وأوضح من هذا المثل أن ضرورة السجع كان لها دور في بنائه وصياغته، إضافة إلى أنه قيل على لسان أبناء قرى أخرى قد تكون قريبة أو بعيدة عن الرينة بهدف المناكفة، أو محاولة النيل من هيبة أبنائها.

لم أعثر من خلال قراءتي لهذه الأمثال على ما جعل هذه المدن والقرى دون غيرها مادة للمثل الشعبي، ربما لتاريخها الشخصي، أو لوظيفتها العامة، أو لحادثة طريفة أو موقف خاص حدث في هذا المكان أو ذاك، وربما لغيره من الأسباب أيضاً.

ما يمكن التأكيد عليه أن بعض هذه الأمثال، الإيجابية منها تحديداً، يمكن أن تكون قد قيلت على لسان أهل المدينة أو القرية التي تناولها المثل الشعبي، فيما يمكن القول أن

الأمثال الأخرى – التي تحمل في طياتها جوانب سلبية أو نوعاً من التهكم والسخرية، قد قيلت على لسان فئة أخرى من مدن وقرى مجاورة أو بعيدة.

لكن ما يتفق عليه الجميع أن هذه الأمثال قد انتشرت، وأصبحت متداولة لدى الشعب كله، سواء رضي أبناء تلك القرية أو المدينة أم لم يرضوا.

ومما يمكن أن يثير التساؤل هنا أن مدناً أكثر أهمية وأكثر شهرة من غيرها، لم ترد اسماؤها – حسب ما هو متوفر لدي- في الأمثال الشعبية ومنها على سبيل المثال:

القدس، غزة، الخليل، حيفا، الناصرة وغيرها.

وفي حالة قريبة من الأمثال الشعبية فقد ارتبطت بعض الصناعات أو المنتوجات الزراعية في مدينة ما باسمها، حتى صارت نسبة هذه الصناعة أو المنتوج إلى المدينة الفلسطينية تمثل (ماركة مسجلة) كما يقول رجال التجارة والاقتصاد، وهذا ما عملت الذاكرة الفلسطينية على نشره وتعميمه ليؤدي وظيفة قريبة من وظائف الأمثال:

ومن هذه الصناعات والمنتوجات:

صابون نابلسي

كنافة نابلسية

عنب خليلي

برتقال برقاوي

موز ريحاوي

بطيخ جنيني

جميز غزاوي

جبنة عكية

وإل جانب المدن والقرى الفلسطينية فقد تعامل المثل الشعبي الفلسطيني مع مجموعة من المدن العربية أيضاً: وذلك لأكثر من سبب:

- أن بعض هذه الأمثال مشترك مع أبناء الأقطار العربية الأخرى.
- فهم الفلسطيني لمحيطه وعلاقته به.

- علاقة هذه المدن بالتاريخ العربي الإسلامي.

فقال المثل:

فلان بتبغدد (نسبة إلى بغداد).

خليها عشرة حلبية

مثل برد حالب

لا طال بلح الشام ولا عنب اليمن

اللي اشتراه في الشام ضيعه في طريقها

بعد خراب البصرة

الغني والفقير

لا بد هنا من معرفة من هو الفقير ومن هو الغنيّ؟ حتى نتمكن من فهم مصادر الأمثال الشعبية التي تناولت هذا الموضوع، وفهم غاياتها ومصالحها، ومن يقف وراء صياغة المثل ونشره وتعميمه.

فالغنيّ هو التاجر والإقطاعي وصاحب السّلطة، وهؤلاء يملكون الجاه والنفوذ والسلطة إضافة إلى الأرض والمال.

والفقراء.. هم عامة الشعب، والفلاحون منهم على وجه الخصوص، لذلك فقد انحاز الغني إلى طبقته ودافع عنها أيضاً، وكان المثل واحداً من أسلحة معركتهم المستمرّة.

وإذا كانت الصورة القادمة إلينا عن الأغنياء هي صورة واضحة، ربما لا تضاح مصالح أصحابها، فإنّ صورة الفقراء كانت صورة سادها الإرباك والتناقض، ربّما لأنّ الفلاّحين على كثرتهم لا يملكون سلطة ولا نفوذاً، أو لأن بعضهم تحت تأثير سلطة ونفوذ الطّرف الآخر ونتيجة للحاجة والخوف، قد استسلموا وخرجوا خارج دائرة الصّراع، أو ظلوا فيها ولكن في خدمة الأغنياء.

من هنا نلاحظ أنّ الأمثال التي تنحاز إلى الأغنياء هي الأكثر وهي الأعمّ، في حين جاءت الأمثال الخاصّة بالفلاّحين الفقراء، خجولة، تبريرية، غير تصادميّة، أو هي أقرب إلى الحياد. في أقلّ تقدير.

لقد اعتمدت الأمثال الشعبيّة: المال، الأرض، المواشي، المزروعات مقياساً للغنى والفقر، فمن يملكها كان غنيّاً، ومن لا يملكها فهو فقير، وتجاوزت بالتالي بعض الاعتبارات والمواصفات الأخرى للغنيّ، وهي أن تتتكون قد ذكرتها فمن دون تفاصيل أو بحيادية واضحة مثل القول:

الغني غنيّ النّفس
الفقير فقير العقل

في حين كانت الأمثال الخاصّة بالغنى والأغنياء أكثر تفصيلاً، وأكثر حدة في القول والشّرح والتوضيح، ربّما لوضوح رسالة أصحابها وأهدافهم الاجتماعية.

مرة غنية احسن من حمولة مهرية

الغني كل الناس بتغني له

صيت الغني ولا صيت الفقر

وكانت المقارنة التي نقلها المثل الشعبي بين الغني و الفقير، اكثر حدة و تجريحا، ولا تقف عند حدود ((الصمت)) فقط، بل وصلت الى ما هو متعلق بالحياة و اخلاقياتها و قوانينها :

تعريص الغني و موت الفقير ما حدا بدري فيهن

الغني الكل يغف له و الفقير الكل بداويله

وكان الاغنياء اكثر وضوحا ووعيا اجتماعيا في الدفاع عن مصالحهم، ربما لامتلاكهم السلطة و النفوذ، او لضعف التيار المقابل من الفلاحين، فهؤلاء الاغنياء عملوا على ايجاد مسالك واضحة لاخلاقياتهم، ودعوا الى اتباعها :

انا غنية و بحب الهدية

كثر الزقر بورث الفقر

ولم تشفع للفلاحين الفقراء استكانتهم و اعتمادهم على الاقدار وحدها، كي تحسم الصراع و توحد في ما بينهم، لذلك جاء قولهم

فلان غني ومات فقير

قولا لا يمتلك قوة اقناعه التي يمكنها ان تصدى لهجوم الطرف الاخر في معادلة الصراع الطبقي الدائر بين الطرفين.

لقد كان الفلاحين الفقراء ضعافا مشتتين، يعوزهم الجاه و السلطة و النفوذ في مواجهة خصومهم الذين يملكون كل شيء، وكان على هولاء الفلاحين

ان يحاربوا على جبهتين، جبهة الاغنياء و الاعداءالتقليدين و الواضحين لهم، و جبهتهم الداخلية، سواء على صعيد وحدتهم، كون ان قسما منهم قد حسم نفسه لصالح

جبهة الاغنياء، او على صعيد مقاومة الفقر نفسه الذي سب لهم الكثير من الاحباطات و المعوقات، لقد كان الفقر قوي و الوطأة على الفلاحين الى درجة تكبيلهم، مما اضطرهم الى التصريح بجانب من معاناتهم الداخلية :

الطفر بعمي البصر

ما معوقنا عن السفر غير الطفر

من كثر الطفر شفنا البزقة شلن

مع كل هذا، ظل رد فع الفقراء دون المستوى المطلوب، فهم لم يثوروا للدفاع عن حقوقهم التي اغتصبها الاغنياء ممثلين بالاقطاعيين، وظل الفقراء مستلبين مسلمين امورهم للقدرية الغيبية التي تخلت عنهم ايضا، و نظرة الى الامثال الشعبية التي بين ايدينا بهذا الخصوص نراهم لم تتطرق الى هذا الصراع، سواء على الجبهة الخارجية ام الداخلية، واستهوى الفقراء ان يمارسوا صراعهم مع الاغنياء ضمن منطق (اضعف الايمان) ربما لان خسائرهم اقل. وهذا المنطق كما هو معروف لن يكون قادرا على تغيير القوانين السائدة و لن يستطيع فرض قوانينه الخاصة ايضا في دائرة هذا الصراع.

ان الفلاحين الفقراء لم يتمثلوا قول الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه

لو كان الفقر رجلا لقلته بيدي

لذلك نراهم قد استكافوا لسطوة الاغنياء اصحاب السلطة و النفوذ، و ظلوا اهم الطرف الخاسر في دائرة الصراع التي لم تتوقف، وظلت بالتالي امثالهم الشعبية عاجزة عن استيعاب هذا الصراع او ترجمته او التعبير عنه.

العاقل و المجنون

افراد المثل الشعبي مساحة من اهتمامه للعاقل و المجنون، صفاتهما و اعمالهما و نظرة المجتمع اليهما، ولان العقلاء هم الاكثرية، و هم القاعدة حتما و ليسوا الاستثناء، فقد كان انحياز المثل الشعبي اليهم واضحا من خلال اهليتهم و مؤهلاتهم لقيادة المجتمع وتمثيله خير تمثيل.

العلاقة بين العاقل و المجنون كانت مادة للعديد من الامثال الشعبية، تعاملت معهما مكن دون تفريق، فجاءت على شكل مقارنة بين افعال العاقلين و افعال المجانبن، منحازة بالضرورة الاخلاقية و الاجتماعية الى صف العقلاء :

مجنون يحكي و عاقل يسمع

مجنون دب حجر في بير مية عاقل ما عرفوا يطلعوه

هات للمجنون الف عقل

اذا انجبوا ربعك عقلك ما يفيدك

ويبدو واضحا من خلال هذه الامثال وجود استخفاف بالعقل و بصاحبه. الامر الذي يدعو الى التسليم بالامر الواقع، ومصادره دور العقل و العاقل في دورة الحياة، ولان اصحاب النفوذ حتما هم المستفيدون من تسيب الامور و (ضياع الطاسة) فانهم ذهبوا الى تقزيم دور العقل و العقلاء عند خصومهم من الفلاحين و الفقراء و عامة الشعب. لذلك فان هذه الامثال هي حتما امثال تخدم مصلحة ارباب السلطة واتباعهم، الهدف منها تسفيه كل شيء يعارض مكوناتهم حتى لو كان العقل نفسه.

وكانت صورة المجانين التي رسمتها الامثال الشعبية صورة كاريكاتورية مضحكة تعاطفت معهم في جانب و قست عليهم في جوانب كثيرة :

عورة تحفف مجنونة وطرشة توقف على الباب

المجنون ما بتسلم حجر

عصاة المجنون خشبة و محاكاته غلبة

رزق الهبل ع المجانين

نوم العصر بورث الجنون

قليل العقل بتوجعه رجليه

الولد اللي ما هو من ظهرك، كل ما انجن افرح له

ويبدو ان المجنون حالة تمناها اصحاب النفوذ لخصومهم، و نلمس ذلك واضحا في ما يعنيه المثل الاخير الذي ربط الفرح بجنون الاخرين، الذين ليسوا من صلبك او من حلفائك، لان المجنون لا يقدر العواقب ولا يهتم بالنتائج، فيريد هؤلاء الا يعارضهم احد في سياستهم، و الحل الذي يريدون فرضه على المجتمع ان يتحول الجميع الى مجانين، ان لم يكن بالممارسة اليومية فبالسلوك الجماعي.

وعلى النقيض تمتما كانت صورة العاقل، صاحب الرأي السديد، الذي يتحمل مسؤلية كلامه و اعماله امام المجتمع، و الذي يقدر العواقب، و يرى ابعد من غيره، من خلال احتكامه للعقل و قانونه في محاكمة الاشياء و الحكم عليها :

عقله في رأسه بيعرف خلاصة

الله بالعين ما شافوه بالغقل عرفوه

العقل زينة و اللي بلاه حزينة

والمتفحص لهذه الامثال يرى انها لا تبتعد كثيرا عن الاعتراف بالهزيمة امام سطوة الاخرين و نفوذهم، فالعقل هنا زينة وخلاص فردي، ولم يذهب المثل الى جعله خيارا جماعيا، مما يجعله قريبا الى السلبية، ليس بينه و بين التسليم بالامر الواقع مسافة كبيرة، العاقل هنا كما يصوره المثل لم يأخذ دوره في القيادة و التوعية و التحريض بل اكتفى بسلامته و سلامة صاحبه من الشرور التي يمكن ان تصيبه، و السلامة هنا هي الخلاص، بالابتعاد عن الصراع و الانتباه الى مشاكله الشخصية و لقمة عيشه و عيش عائلته.

وكان المثل صارما على العاقلين ايضا، حيث طالبهم بالاتزان و السؤولية، والا فان العاقل سيكون مدعاة للسخرية و الاستهزاء :

مثل ابو عقلين كل ساعة برأي

وهذا النمط من الناس لن يكون مؤهلا للقيادة، او حتى لابداء الرأي و المشورة، لانه يملك رأيا ولا يملك موقفا، وهذا ما يريده اصحاب النفوذ من الفلاحين الفقراء، ان يسلموا بجلدهم، وان يتركوا الساحة لمن يقدر على امتلاكها و حمايتها.

مع كل ما قاله المثل عن المجانين، ومع كل هذه القسوة التي تعامل بها معهم، الا انه لم يجردهم من انسانيتهم، فهم بشر مثلنا، و يجب على المجتمع ان يحميهم و يدافع عن حقوقهم.

المجانين اولاد ناس

لكن العاقلين من الفلاحين الذين استسلموا لسطوة الاقطاع و اصحاب النفوذ، و عجزوا عن خلق القوانين الخاصة لحماية حقوقهم، عجزوا كذلك عن خلق و ايجاد قوانين خاصة لحماية هؤلاء المجانين الذين هم اولاد ناس.

المهن والأرزاق

أ- المهن :

اذا كانت الفلاحة هي المهنة الاساسية و الاكثر انتشارا في الريف العربي، فان ذلك لم يمنع قيام مهن اخرى كالرعي و الصيد و غيرها، و كان حظ المدينة بالمهن و الحرف الشعبية اكثر و ضوحا من الريف و البادية، فقد انتشرت هناك مجموعة من المهن شاعت تسميتها العاملين بها، حتى ان بعضها اصبح لقبا متداولا لذلك الرجل و اولاده و احفاده من بعده..

ومن ابرزها :

الباء، الحداد، الطباخ، الخباز، الخياط، النجار، الاسكافي، وغيرها و

ولم تكن نظرة المثل الشعبي الى هذه المهن على انها لها علاقة بالدخل المادي او الموارد الاقتصادية فقط، بل نظر اليها بشيء اقرب الى القدسية عادا ان :

العمل عبادة

مؤكدا في الوقت نفسه ان يكون لكل فرد في المجتمع مهنة يعتاش بها، والا فان الايد البطالة نجسة

فالمهنة الشريفة تمنع صاحبها من الحاجة، و تبتعد به عن ذلك السؤال الذي نهت عنه الشرائع السماوية، انها الحصانة عند تقلب الظروف :

صنعة في الايد امانة من الفقر

الصنعة ان ما اغنت بتستر

صاحب الصنعة مالك قلعة

الصنعة مغطية بقشة

الكار سواره من ذهب

وهي التي تساعد على بناء شخصية الفرد العامل، فالمجتمع نظر الى العاملين نظرة فيها من التقدير و الاحترام الشيء الكثير، لان العمل عنصر مهم، من عناصر بناء الشخصية، الى درجة ان الناس امتنعوا عن تزويج بناتهم لمن لا عمل له، و العمل شرف، وهكذا فهمه المثل الشعبي، بغض النظر عن نوعه، في الوقت الذي دع فيه الى العمل في اي شيء لا يسيء الى صاحبه و في اي وقت ايضا، كي يظل هذا الفرد مسقلا بنفسه بعيدا عن احتياج الاخرين اشتغل الحد و العيد ولا تعوز اخوك السعيد

اشتغل بالخرا ولا تعتاز الخرا

لقد كان المثل واضحا في هذا الموضوع، حاسما في التعامل معه، لان الفلاحين الذين وقفوا وراء صياغة هذه الامثال، و نشرها، عرفوا ما تعنيه الحاجة، و عرفوا ماذا يعني ان يمدوا ايديهم الى الاقطاعيين و المرابين للاستدانة منهم، انهم اذا اقدموا على هذه الاستدانة فان ارضهم و محاصيلهم و مواشيهم ستكون مستهدفة من هؤلاء الاقطاعيين المرابين الذين ستظل عيونهم على كل ممتلكات الفلاحين.

وفي الحالة تساوت نظرة المسلمين و المسيحيين الى احتياج الاخرين، مهما كانت درجة القرابة منهم، و مهما كانت النظرة الاجتماعية لهم، مما يؤند مرة اخرى الفهم المشترك للحياة بين كل ابناء الشعب بغض النظر عن ولاءاتهم و معتقداتهم الدينية.

وبقدر دعوة المثل الى العمل فانه سخر بنوع من التهكم على اولئك العاطلين عن العمل، الذين ليس لهم ما يعتاشون عليه :

اكل ومرعى وقلة صنعة

ولم يكن المثل محايدا في الدعوة الى العمل، لكنه اكد التخصص من اجل ان يتقن كل عامل عمله ومن اجل نتائج افضل رافضا في الوقت نفسه ان يذهب الناس الى عمل ما لا يعرفون لان ذلك سينعكس سلبا عليهم و على العمل و على المجتمع ايضا.

سلم خبزك للخباز لو اكل نصه

اللي ما هو كاره يا ناره لكن بعض الكسالى حاولوا فرض فلسفة جديدة عبر امثالهم الخاصة، ربطوا فيها الحظ بالصنعة، مقدمين الحظ، مقللين من شأن الصنعة :

سبع صنايع و البخت ضايع

ان الاعتماد على الحظ و(البخت) هو اعتماد على نظرة غيبية الى الامور لم يكن المثل الشعبي ميالا لها او متحمسا لها، ربما لان الفلاحين خبروا جيدا اهمية المهنة و نتائجها، و مقدار الحصانة التي وفرتها لهم، لذلك نراه واقعيا في النظرة الى هذه المهن و التعامل معها، ففي الوقت الذي كان فيه حريصا على التخصبص في المهنة، فانه دعا الى اتقان العمل بها، ساعيا الى كشف الادعياء الذين يدعون بما ليس لديهم.

مش كل من صف الصواني صار حلواني

و الكثير من المهن يتم تورثيها في العائلات، حتى اصبح بعضها كما قلنا مرتبطا باسماء هذه العائلات في الوطن العربي، فتحن نرى اسماء مثل النجار، الحداد، الخياط و غيرها عند الكثيرين، حتى لو امتهن ابناؤهم مهنا اخرى.

لكن هل كل المهن تصح للتورث ؟ و هل كل المهن قابلة للتعلم ؟

المثل الشعبي لم يغفل هذه الحقيقة، فقد اشار اليها في اكثر من مجال ملمحا الى تفوق التلاميذ احيانا على اساتذتهم في بعض هذه المهن :

علمناهم الشحدة سبقونا ع الطوابين

علمناهم الشحدة سبقونا ع الابواب

ولكن مهنة اسرار و عادة ما يحرص صاحب المهنة على عدم اشاعة ((سر المهنة)) حتى تبقى حكرا عليه، و يظل مطلوبا في المجتمع الذي يعيش فيه، لا ينافسه احد، و في الوقت الذي يكون اخفاء سر المهنة مشروعا عند المثل الشعبي، فان للمهنة بشكل عام اخلاقياتها التي يجب تعميمها، و المحافظة عليها، لان تجاوز هذه الاخلاقيات العامة قد يعارض تماما اصول المهنة ويجعل العاملين بها محل تندر و استهجان من المتعاملين معهم.

شحاد و منشرط

زبال و شاكل له بيذوقه

انا مغسل ولا ضامن جنة ؟

ولا يخلو اي مجتمع من بعض الافراد الذين يهتمون بغيرهم اكثر من اهتمامهم بانفسهم، لذلك كان المثل الشعبي حادا في التعامل معهم، انطلاقا من ان الذي لا يهتم بنفسه او ببيته يكون اهتمامه بالاخرين موضع شك وريبة

باب النجار مخلع

السكافي حافي و الحايك عريان

يا مداوي الخيل من روسها، داوي حصانك من عند ذره زاغ.

ب- الرزق و الأرزاق

مثلما اهتم المثل الشعبي بالمهن. فقد اهتم كذلك بالرزق و الارزاق، كون المهن هي واحدة من بوابات الرزق الحلال الذي حث عليه المثل الشعبي ودعا اليه في الكثير من اقواله.

وظلت نظرة المثل الشعبي للرزق و الارزاق منطلقة في اساسها من الموروث الديني و العادات و التقاليد الاجتماعية الكريمة. و تميزت طريقة التعبير عن الرزق بالنسبة للمثل الشعبي بطريقتين، قد تكونان مناقضتين :

طريقة اعتمدت على الله سبحانه و تعالى، فيها كثير من الاتكالية و الاعلاقة الغيبية بموضوع الرزق و الارزاق.... من دون ان اكون للفرد اي دور في طرق ابواب الرزق او السعي اليها... و يتضح ذلك من مجموعة الامثال التالية

قطع الاعناق ولا قطع الارزاق

الاعمار و الارزاق بيد الله

كل يوم بيومه و الرزق على الله

الرزقة لما توجه تكسر الباب و تفوت

اصرف ما في الجيب يأتي ما في الغيب

طريقة اعتمدت على الحركة و النشاط... طريقة فيها دور واضح للفرد صاحب العلاقة المباشرة...انطلاقاً من قوله تعالى، و اسعوا في مناكبها و كلوا من رزقه " صحيح

انها تعتمد على الله سبحانه و تعالى، و لكنه اعتماد مقترن بالنشاط، و مقترن بالسعي الجاد في دروب الحياة و يتضح ذلك من مجموعة الامثال التالية :

اسعى يا عبدي و انا بسعى معاك

الرزق بدو نطة

مطرح ما بترزق الزق

و اعتقد المثل الشعبي على لسان صائغيه ان انقطاع الرزق له اسبابه أيضاً، و ان جزءاً من هذه الأسباب كما يراها المثل الشعبي قد تكون متعلقة بوجود شخص مشؤوم في البيت او في المحيط، لذلك حاول المثل الشعبي ان يحمل هذا الشخص المشؤوم سبباً في انقطاع الرزق ان لم تكن الاسباب كلها

صباحه بيقطع الرزق

صباحه بيقطع الخميرة من الدار

لكن هذا الاعتقاد يظل اعتقاداً يفتقر الى الوعي و المنطق، و هو مرد تعبير عن حالة عدم ارتياح أو موقف شخصي من شخص ما.

و اعتماداً على الموروث الديني أيضاً.. وانطلاقاً من الاعتراف بأن الله قد جعل لكل شيء سبباً.. فقد قال المثل الشعبي :

رزق الهبل على المجانين.

الكذب والصدق

من المتناقضات التي تعامل معها المثل الشعبي موضوعة الكذب والصدق، سواء من حيث المقارنة بينهما، أم كل واحد بمعزل عن الآخر.

وإذا كان واضحاً ومنطقياً أن ينحاز المثل الشعبي إلى الصدق والصادقين فإنه من غير الواضح والمنطقي أيضاً أن نجد فيه تعاطفاً مع الكذابين.

لقد تعامل المثل الشعبي مع الكذب كصفة إيجابية مقترنة بالرجولة (الفهلوة)، وهذا بحد ذاته بحاجة إلى تفسير. ربما أن الاقطاعيين ورموز السلطة بشكل عام حاولوا من خلال المثل الشعبي العبث بأخلاقيات المجتمع وإيجاد أخلاقيات جديدة تغطي بعض عوراتهم من جهة، وتعمل على خلخلة البنيان الاجتماعي بأخلاقياته الراسخة من جهة أخرى. وربما أن بعض الكسالى والعاطلين عن العمل وضعاف النفوس في المجتمع، قد رأوا في الكذب أهون الشرين، فاحتموا به، لما يوفر لهم من امتيازات لن يحصلوا عليها من خلال تقاليد المجتمع البينة.

ومع ذلك ظل الكذاب في نظر المثل الشعبي ومن ثم في نظر المجتمع انساناً ليس بمستوى صاحب جرم يعاقب عليه القانون وتقاليد المجتمع، مما أفسح مجالاً واسعاً للكذب والكذابين.

لماذا شجع المثل الشعبي على الكذب ؟ لماذا لم يقاطع أو يحاسب الكذابين ؟ ولماذا عد الكذب صفة انسانية مشروعة ؟ وهذه الأسئلة وغيرها هي التي ستقودنا إلى تحسس موقف المثل الشعبي من موضوعة الكذب، والتي نرى في الامثال نفسها إجابة واضحة على ذلك.

صحيح أن مقارنة الكذب بالصدق موجودة، لكنها قليلة إذا ما قورنت بالأمثال المعينة بالكذب وحده فيما لم استطيع العثور على مثل واحد يتعامل مع الصدق منفرداً، وهذا بحد ذاته يؤكد أن الصدق ليس بحاجة إلى دلائل أو قرائن أو إثباتات لما يمثله من قيمة معنوية عالية بين أفراد المجتمع.

الكذب المسرب ولا الصدق الملهوج

وهذا تفضيل غير منطقي للكذب على الصدق، وانحياز إلى من يتقنون اللف والدوران على حساب الحقيقة، وتشجيع غير مباشر لإيجاد قيم وأخلاقيات جديدة في المجتمع.

إن الكذب بنجي، الصدق أنجى وأنجى

ونرى هنا تفصيل الصدق وأعطاءه صفة النجاة الأكيدة، من دون إدانة الكذب أو رفضه في الأقل، وهذا بحد ذاته أيضاً عملية لتجميل الكذب وجعله مقبولاً ومتداولاً في يوميات المجتمع.

ويذهب المثل الشعبي أكثر من هذا حين يدعو علانية إلى الكذب، محرضاً الناس على ممارسته ومخترعاً مبرراته الخاصة للكذابين، في صيغة تدعو إلى الشك، وتتطلب منا أدانة من يقف وراء مثل هذه الحالة التي تسهم في خلخلة البنيان الأخلاقي، في مجتمع تظل الأخلاق هي رأسماله الذي يدافع عنه.

الكذب ملح الرجال وعيب اللي بيصدق

الكذب ع المعيشة حلال

الزلمة بلا كذب زي الدالية بلا عنب

نرى هنا أنه لم يكتف بتزيين الكذب، بل أخذ مأخذ الافتاء حين حلل الكذب، لأن المجتمع المؤمن لا بد من أن يذعن لما هو (حلال) ويتعامل به.

وإذا كان المثل قد حرض الرجال ودعاهم إلى الكذب، فإنه ظل ضعيفاً ومتردداً امام دعوة النساء إلى الكذب، ربما لأن كذب المرأة حالة تعلق بشرف العائلة وشرف المجتمع، ظل المستفيدون من مثل هذه الأمثال عاجزين أمام تمسك المجتمع بتقاليد الشرف بشكل عام.

فالذين أجازوا الكذب للرجال ظلوا متحفظين على كذب النساء، حيث لم أجد مثلاً واحداً يدعو إلى ذلك ويجيزه على الأقل.

وجاءت بعض الإدانات غير الموجعة للكذابين في بعض الأمثال الشعبية، إدانات لم ترق إلى حجم فعلهم الكذاب، مما يؤكد أن المثل الشعبي قد تعاطف مع الكذابين ولم يشرع قانونه الخاص لمحاسبتهم.

الكذب حبله قصير

شو عرفك أنها كذبة، قال من كبرها

ما أكذب من شاب تغرب، إلا شايب ماتت أجياله

الكذاب خرب ديار الطما فإذا كان أشد وصف للكذاب هو (تخريبه) لديار الطماع الذي هو أصلاً مرفوض من المجتمع فلا مانع إذا من الصراع بينهما انطلاقاً من المثل القائل (فخار يكسر بعضه) هذه وقد تحسب من بعض وجهات النظر بأنها حسنة وميزة لهذا الكذاب.

ربما كان منطق الكذابين ومن يقف وراءهم أقوى من منطق المدافعين عن أخلاقيات المجتمع، الذين كانوا ضعفاً في حجمهم ومبرراتهم التي لم تستطع أن تأت بإدنات واضحة ورادعة للكذب ومن يتعامل معه، لذلك فإننا نرى في الأمثال السابقة إدانة خجولة، وعدم اكتراث حقيقي بأخلاقيات المجتمع التي ظلت عرضة للتلاعب ممن يهمهم تهديم جوانبها، حين قالوا على لسان المثل:

كذبة بيضة

في محاولة تبريرية للكذب وتجميلية له من أجل تمريرها على أكبر قطاع من الشعب، أنها محاولة لإعطاء الكذب صفة مشروعية يكون جائزاً التعامل بها، وهذا بحد ذاته قد يقودنا إلى الاعتراف بأن هناك (كذبة سودة) غير مشروعة ولا يجوز التعامل بها انطلاقاً من ضرورة وجود النقائض والأضداد، غير أنني لم أعثر على أي أثر لهذت النوع من الكذب، فيما هو متوفر بين يدي من أمثال.

وقد جاء في رياض الصالحين وفي باب ما يجوز من الكذاب ما يلي:

إن الكذب وأن كان أصله محرماً فيجوز في بعض الأحوال بشروط ومختصر ذلك: أن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب، يحرم

الكذب فيه وأن لم تحصيله إلا بالكذب، جاز الكذب فيه، ثم أن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً، كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً كان الكذب واجباً. واستدل العلماء جواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها، أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ويقول خيراً)[1] [متفق عليه].

انطلاقاً من هذا، ربما كان بعض رجال الدين، ممن تزلفوا إلى السلطة وأصحاب النفوذ في المجتمع، مع الكذب والكذابين، سبباً في عدم الإدانة القوية لهم وفي هذا التعاطف الذي أبداه المثل معهم. وحتى تكتمل الصورة، لا بد وأن نذهب إلى الجانب الآخر الذي وقف فيه الدين موقفاً واضحاً من الكذب والكذابين يستدل عليه من الحديث الشريف: عن ابن مسعود (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ) : (أن الصق يهدي إلى البر، وأن البر يهدي إلى الجنة، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وأن الكذب يهدي إلى الفجور، وأن الفجور يهدي إلى النار، وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا[2] [متفق عليه]. وهذا يؤكد أن بعض رجال الدين الرسميين قد وقفوا موقفاً منحازاً إلى جانب أصحاب السلطة والنفوذ، الذين يهمهم خلق مجتمع كذاب، يسهل عليهم مهماتهم ويستر لهم عيوبهم الكثيرة.

---

(1) رياض الصالحين، باب بيان ما يجوز من الكذب، ص: (443).

(2) رياض الصالحين، باب تحريم الكذب، ص: (438).

الفلاح والمدني

ظلت النظرة للفلاح، وهو هنا من يسكن الريف ويتخذ من الفلاحة مهنة له.

ظلت نظرة دونية، سواء من أبناء المدن أو من الإقطاعيين والأغنياء، حتى لو كان هؤلاء يعيشون كذلك في الريف.

وقد حددت الحالة الاقتصادية والواقع الطبقي للفلاحين، طبعية العلاقة بينهم وبين غيرهم من المواطنين الأكثر حظاً.

فالمطلوب من الفلاح أن يظل منتجاً لغيره، وأن يظل مطيعاً وقابلاً بسطوة الأغنياء ونقودهم المتأتي حتماً من (خنوع) الفلاحين وفقرهم وطاعتهم غير المبررة لأوامر وتعليمات الآخرين.

لذلك فإننا نرى أن هناك مجموعة من الأمثال الشعبية التي تحدثت عن طبيعة وحياة وسلوك الفلاحين، بطريقة فيها من التهكم والسخرية التي تصل أحياناً إلى درجة الاحتقار، راسمة صورة متخلفة لهذا الفلاح الذي لا يليق به مغادرة مكانه أو النشبه بسلوكيات الأغنياء.

ونظرة متفحصة لهذه المجموعة من الأمثال تؤكد لنا أن أبناء المدن والأغنياء والإقطاعيين هم الذين يقفون وراء صياغة هذه الأمثال وربما نشرها وتعميمها، وقد يكون أن ساهم بعض الفلاحين (المنضبطين) بشكل أو بآخر في تعميم مثل هذا النوع من الأمثال انطلاقاً من اقتناعه بظروف حياته، أو أنه لا يسعى إلى أي اصطدام مع تلك الفئة المنتقذة من الأغنياء حفاظاً على لقمة عيشه.

الأمثال هذه فيها حدود فاصلة وواضحة بين الفلاحين وغيرهم، لذلك لا يجوز لأي أحد منهم أن يتجاوزها، أو أن ينظر إلى طبيعة الحياة خلف تلك الخطوط التي رسمها الأغنياء والإقطاعيون، الذين يرون أن المدن ورفاهيتها هي جزء من حقهم الذي لا يجوز للفلاحين مشاركتهم فيه.

ويبدو هنا واضحاً أن ليس الفلاحون وحدهم المقصودين بهذا (الحجر) بل الفقراء جيعاً، حتى تظل المسافة واضحة المعالم بين طرفي المعادلة.

الفلاح فلاح ولو تعشى العصر

فلاح ونزل ع المدينة

نزل الفلاح ع المدينة تحلى دبس وطحينة

لكن الفلاح الذي تعرض لكل هذه القسوة التي حملتها الأمثال السابقة، لم يقف مكتوف الأيدي، فحاول الدفاع عن نفسه بنفس السلاح الذي استعمله خصومه، فذهب الفلاحون إلى صياغة بعض الأمثال التي تدافع عن حقوقهم وتحاول توضيح أطراف العلاقة الاجتماعية والاقتصاديو بين (الفلاح والمدني) هذه العلاقة التي يجب أن تكون متكافئة تضمن المصالح المشتركة استمرارها.

لولا الفلاح ما عاش المدني

لأن الفلاحين هم الذين يقفون وراء العملية الإنتاجية القادمة من الأرض، والتي تذهب حتماً لصالح أبناء المدن الذين لا يعملون بالزراعة.

غير أن صائغ المثل من الفلاحين كان أكثر وضوحاً في تحديد ملامح العلاقة الاجتماعية بين الطرفين، غامزاً إلى مسلكية أبناء المدن الذين يتخلون عن دورهم الاجتماعي في كثير من الأحيان، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالعلاقة مع الفلاحين، بغض النظر عن طبيعة العلاقة الاجتماعية التي تربط بين الطرفين، فجاء واحد من الأمثال التي صيغت على لسان الفلاحين حتماً، والذين وقفوا وراء نشره وتعميمه، لترسم صورة كاريكاتيرية مضحكة للمدني، في محاولة للثأر من حجم القسوة والسخرية التي حملتها أمثال أبناء المدن على الفلاحين:

المدني مثل الجاجة أطعمه سنة بعشيك ليلة

لكن الفلاح الذي شعر بأن صورته اهتزت من الأمثال التي تناولت حياته ومسلكيته، والتي جاءت على لسان الآخرين، حاول أن يقدم صورته بنفسه، في مثل يظل

أغلب الظن أنه قيل على لسان الفلاح نفسه، ليفسر للآخرين طبيعة حياته، وحجم قناعته بهذه الحياة، ومدى رضاه عنها فهو يقول:

الفلاح يبذر حبة وبتوكل ع ربه

إذا كانت الأمثال الشعبية قد نقلت لنا صورة عن العلاقة الاجتماعية المتوترة بين الفلاحين وأبناء المدن، فإنني هنا أميل إلى الاعتقاد بأن هذه العلاقة كانت تختفي، وتتوحد مشاعر الفلاحين وأبناء المدن، وتتوحد سواعدهم أيضاً في الدفاع عن الأرض التي كانت مهددة من الأعداء الخارجيين، وتؤكد الوثائق التاريخية العلاقات الواضحة بين الطرفين في الثورات والانتفاضات التي اندلعت في فلسطين عبر تاريخ صراعها الطويل مع الغزاة الذين تعاقبوا عليها.

الحماة والكنة

تظل العلاقة بين الحماة والكنة من العلاقات المتوترة في كل المجتمعات، ويبدو أن هناك عاملاً نفسياً، يقف وراء تأزيم العلاقة باستمرار.

فالحماة التي تذهب لخطبة عروس لابنها ويكون لها دور في اختيارها أحياناً، تذهب بعدها إلى افتعال الخلافات مع كنتها التي تأتي لتشاركها (ابنها) الذي ربته كل هذه السنوات، وجاءت امرأة غريبة لتأخذه بسهولة، وتسيطر على عواطفه واهتماماته.

وظلت العلاقة بين الحماة والكنة من العلاقات التي تندر بها المثل الشعبي، واتخذ منها المجتمع مادة الفكاهة باستمرار، لذلك فأنني أميل إلى الاعتقاد بأن كثيراً من جوانب هذه العلاقة مبالغ فيها، وأن حاول المثل الشعبي تصوير سلبياتها فقط، دون أن يأتي على ذكر أي إيجابية لهذا النوع من العلاقات التي لا يخلو منها أي بيت في المجتمع، سواء كان في الريف أم في البادية أم في المدينة.

المثل الشعبي هنا نقل صورة للعلاقة في أكثر من جانب:

- صورة مشتركة للحماة والكنة معاً، والتي جاءت تحمل ملامح عج=وانية لا تخلو من الخبث والمكر والضعينة.

قوموا اسمعوا هالفنة بين الحماة والكنة

- صورة عن نظرة الحماة لكنتها وطبيعة العلاقة معها:

بحكي يا جارة تاتستمعي يا كنة

قالوا للحماة ما كنت كنة، قالت كنت ونسيت

- صورة عن نظرة الكنة لحماتها وكيف تتعامل معها، أو كيف تنظر لحياتها وبيتها بعيداً عن حماتها.

الكي بالنار ولا حماتي بالدار

غير أن طبيعة العلاقة والتشابك بينهما يظل عقدة عصية على الحل دائماً، وقد صور المثل الشعبي جزءاً من هذه العلاقة بقوله:

إن كانت الحماة بتحب الكنة بتطيح الكلاب الجنة

في إشارة إلى استحالة الانسجام والود بين الطرفين، خاصة وأن هناك ما هو مشترك بينهما، هو (الرجل) الذي شكل ارتباطاً دائماً بين الطرفين.

لكن ما يجب الإشارة إليه أن طائغ المثل الشعبي كان يبدو عليه التعاطف في كثير من الأحيان مع الكنة على حساب الحماة، التي يعتقد الصائغ المثل أنها السبب في اندلاع شرارة العداء، وان تجربتها وخبرتها في الحياة أكثر من كنتها، ولذلك كان من المفترض أن تقف إلى جانب هذه الكنة، التي تدخل باب الحياة، وغير متسلحة بتلك الخبرة التي تمتلكها الحماة.

وإذا كانت العائلة في كثير من المجتمعات العربية في العقود السابقة، تسعى إلى ضم أبنائها وزوجاتهم في إطار بيت العائلة، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً أمام احتكاك يومي ومباشر بين الحماة وكنتها، مما ينتج عنه المشاكل والخلافات، فإن هذا النوع من الخلافات يبدو هذه الأيام أقل حدوثاً بسبب الوعي الاجتماعي الذي تتمتع به الحماة والكنة من جهة، واتجاه الأبناء بشكل عام إلى السكن الخاص في بيوت مستقلة بعيداً عن بيت العائلة الكبيرة، الأمر الذي يجعل مجال الاحتكاك بين طرفي الصراع في حدوده الدنيا، بسبب تباعد المسافة بينهما.

إلا أن ما يجب الإشارة إليه كذلك، أن هذه العلاقات المتوترة بين الحماة والكنة، أدت في كثير من الحالات إلى إنهاء العلاقة الزوجية بالطلاق، لذلك احتلت العلاقة بين الطرفين جانباً مهماً من اهتمامات المثل الشعبي وصائغيه، لأن هذه العلاقة تتعامل مع لبنة أساسية من مكونات المجتمع.

ومهما وصلت حدة الخلاف بين الحماة وكنتها، فإن الخاسر الأكبر في مثل هذه المعركة غير المبررة الأسباب والأهداف، هو الرجل المشترك بين الطرفين الذي لا يستطيع الاستغناء عن أمه أو زوجته.

وإذا كانت الحالة المعلنة لموقف الرجل هو وقوفه مع أمه، فإن الدلائل التي نبه إليها المثل الشعبي تشير إلى تعاطفه مع زوجته سراً، في أضعف الإيمان، نتيجة علاقته الخاصة بها، فقد ذهب المثل إلى تحديد طبيعة نظرة الرجل للطرفين وانحيازه إلى أي منهما، بالقول:

أمك وإلا أختك؟ قال اللي بغنج تحتك

في إشارة لا ينقصها الوضوح حول انحياز الرجل بمشاعره وعواطفه إلى زوجته، على حساب أمه وأخته، في مثل هذه المعارك التي تظل خاسرة مهما كانت نتائجها.

صدر للمؤلف

في الشعر:

1 – حوارية الجميز والحجارة – كاظمة الكويت 1989.

2 – أمير مجدّو – الأمد بغداد 1993.

3 – دفاعا عن اللحظة الراهنة – بغداد 1994.

4 – ما لم تقله شهرزاد – باللغتين العربية والانجليزية –ترجمة نزار سرطاوي عمان 2014.

5 – أسئلة الوقت – دجلة عمان 2014.

في السيرة:

1 – بير الرصاص – سيرة ذاتية – عمان 2009.

2 - علي السرطاوي سيرة شاعر- المرصد عمان 2010.

3- الموسيقار روحي الخماش – سيرة وإنجازات – أمواج – عمان – 2015.

في التراجم :

1 – موسوعة الشخصيات الأردية – ج 1 – عمان 2009.

2 – موسوعة الشخصيات الأردنية – ج 2 – عمان 2012.

في الحوار :

1- وهج الأسئلة – أحمد المديني يتحدث – أزمنة عمان 2010.

2- الشمعة والدرويش – حميد سعيد يتحدث – دجلة عمان 2012.

3- الكتابة بلا انقطاع – سامي مهدي يتحدث – دجلة عمان 2013.

4- أسرار في حياة صانعي الأخبار –أمواج – عمان 2015.

في الدراسات :

1 – الأمثال الشعبية الفلسطينية – قراءة معاصرة – ط1/ دجلة عمان 2011.

2 كفل حارس نصيب من الشمس – أمواج – عمان 2013.

3 – أديب ناصر شاعر الموقف – دجلة عمان 2013.